مقدمة

كنت طالباً في جامعة أكسفورد العام 1968. أذكر أني التحقت في ذلك الزمن بشيء يسمى الرابطة الثورية لطلاب أكسفورد الاشتراكيين؛ اسم لم يعد يصلح مادةً للتَهكم هذه الأيام. لكن بدا الأمر كله بسيطاً حينذاك. عندما تخرجت في الجامعة رغبت في أن أضع معرفتي علم الاقتصاد في خدمة إفريقية. كانت الدول الإفريقية حديثةَ العهد، وفقيرة التجهيزات، وتفتقر إلى المؤهلات العلمية، والفكرية.. وبالكاد كنت تجد أحداً من الأفارقة تلقّى نوعية التعليم التي كنت أتلقاها. في ذلك الزمن، كان لكثير من طلاب جامعة أكسفورد صلات أسرية مع إفريقية بحكم عمل آبائهم مديرين في إدارة شؤون المستعمرات. أما في حالتي أنا، فلم يكن أبي واحداً من أولئك؛ إذ كان يعمل جَزّاراً في يوركشير . بيد أن بعض هذه الصلات لابد أن تكون قد أَثرت فيَّ تأثيراً كبيراً، وأصبحت جزءاً منّي:

فقد كان والد أحد أصدقائي حاكماً عاماً لبلد صغير اسمه نياسالاند وهكذا قرأت عن ذاك البلد طويلاً. وقد جعلني ما قرأته أُقرر الذهاب إلى هناك.

أطلق على ذلك البلد اسم جديد وهو ملاوي. لقد كان البلد الأشد فقراً في القارة. إن تغيير أسماء البلدان أسهل من تغيير البلدان ذاتها. بعد مضي خمسة وثلاثين عاماً على معرفتي ذلك البلد، ما يزال إلى اليوم يعيش في

فقر شديد. وأنا أشك أن تتغير الأمور كثيراً في السنوات الخمس والثلاثين القادمة ما لم.. هذا الكتاب يدور حول تلك الـ «ما لم».

ملاوي لم تتغير كثيراً في السنوات الخمس والثلاثين الأَخيرة، ومن ناحية واحدة محددة لم أتغير أنا أيضاً، فأنا ما زلت أشتغل على إفريقية بوصفي الآن أستاذاً في جامعة أكسفورد. كنت أستاذاً في جامعة هارفارد، كما سبق لي أن شغلت منصب مدير إدارة الأبحاث في المصرف الدولي، حيث طلب إلي جو ستيغلتيز أن أدعم جهود المصرف الدولي المنصبة على الدول الأشد فقراً. في الحقيقة، كانت المهمة الأولى التي أوكلت إليَّ من قبل المصرف الدولي هي أن أذهب مع جو إلى إثيوبية. وحيث إنني كنت قد تزوجت حديثاً، فقد كانت تلك الرحلة لي -بمنزلة شهر عسل، بيد أنني قضيته مع جو، وليس مع زوجتي. لحسن الحظ، كانت زوجتي متفهّمةً- إما بمحض المصادفة، أو لتشابه الأمزجة. فقد سبق لها أن عملت في ملاوي بعد دراستها الجامعية.

يدور هذا الكتاب حول أقلية من الدول التي تشبه ملاوي، وإثيوبية في هذا العالم، تلك الدول التي تقبع الآن، في أسفل القاع، بالمقارنة مع الدول النامية، على صعيد النظام الاقتصادي العالمي. بعض البلدان مثل ملاوي كانت تعيش، دوماً، تحت خط الفقر. وبلدان أخرى مثل سيراليون كانت ذات يوم أقلَ فقراً من الهند، أو الصين. إن ما يميز البلدان التي تعيش في فقر شديد ليس كونها أشد فقراً فقط، بل لأنها فشلت في تحقيق أي نمو. إنها لم تسلك طريق النمو الذي سارت عليه معظم الأمم الأخرى. إنها بلدان تعيش في مهب الريح، وتهيم على غير هدىً. في بلاد كانت ذات يوم

فقيرة مثل الهند، والصين، وما كان على شاكلتهما، كانت تندفع قُدُماً إلى الأمام، حيث كانت صورة الفقر العالمي مشوشةً، ومختلطةً. كانت بعض الدول تحجب هذه الصورة المنحرفة. طبعاً، كانت بعض الدول تتصرف بطريقة أفضل نسبياً، في حين أن بعضها الآخر يتصرف على نحو أسوأ نسبياً. بيد أن انحدار الدول التي تعيش الآن تحت خط الفقر لم يكن نسبياً، بل كان في معظم الحالات مطلقاً.

بعض الدول لم تقتصر القضية معها على السقوط في الخلف، بل تعدى الأمر ذلك:

لقد سقطت بعيداً، وأغرقت بالسقوط.

في أثناء السنوات القليلة الماضية كان جُلّ عملي مركزاً على الحرب الأهلية. رغبت في فهم الأسباب التي جعلت الصراع يتكثف على نحو متزايد في إفريقية ذات الدخل المنخفض. تكونت لدي شيئاً فشيئاً فكرة «فخ الصراع». إن هذه الفكرة تبين كيف أن ظروفاً اقتصاديةً معينة تجعل بلداً من البلدان نَزَّاعاً إلى الحرب الأهلية. وكيف أنه بمجرد أن يبدأ الصراع يصبح العنف فخاً يَصعب الإفلات منه. لقد أدركت أن «فخ الصراع» هو أحد التفسيرات التي تصف الدول التي تقبع الآن في قاع الاقتصاد العالمي. بيد أن هذا التفسير لا يحكي القصة كلها. فملاوي مثلاً، لم تشهد صراعاً في كل تاريخها بعد الاستقلال، وهي مع ذلك لم تتطور. كذلك، لم تحقق دول أخرى مثل نيجيرية، وكينية تطوراً؛ تلك الدول كنت قد أَلفت كتباً عنها في مراحل مختلفة؛ وهي لا تشبه ملاوي، ولا تشبه إحداها الأخرى. وأنا

obeikandi.com

لا أصدق أن الفقربحد ذاته يعد فخاً. لا يمكن قراءة هذه الإخفاقات على الصعيد التنموي في ضوء النجاحات التنموية العالمية.

إن الفقر هو ما يحاول كل الناس أن يتدبّروا أمورهم للهروب منه. منذ العام 1980، بدأ الفقر يهيمن للمرة الأولى في التاريخ. لم يقتصر الأمر على إفريقيّة فقط. فقد حصلت إخفاقات تنموية في أماكن أخرى من العالم: في بلاد مثل هايتي، ولاوس، وبورما، وبلدان آسيا الوسطى، وقد كانت الأوضاع في أفغانستان أكثرها دراماتيكيةً. لا يمكن اعتماد تفسير واحد للإخفاقات بحيث ينطبق على كل هذا التنوع على صعيد الدول المختلفة.

إن جزءاً من سبب الانتشار الواسع للنظريات التي تعتمد في تفسير فشل التنمية على عامل وحيد يكمن في أن الأكاديميين الحديثين يميلون إلى التخصّص، لقد تدرَّبوا على تسليط شعاعات ضوئية ضيقة، لكنها مركَزة. ألفت كتباً عن التنمية الريفية وأسواق العمل، وصدمات الاقتصادات الشاملة، والاستثمار، والصراع. وعملت مدة من الزمن لمصلحة جو ستيغلتيز الذي كان شديد الاهتمام بكل ما عملت، وأثنى على جُلِّ ما قدمته له ثناء عظيماً. إن لهذا التوسع حسناتٍ، ومزايا. بدأت تتضح لي شيئاً فشيئاً معالم الأفخاخ الأربعة المتميزة التي تتصف بها البلدان التي تعيش الآن تحت خط الفقر؛ تلك الأفخاخ التي سقط فيها نحو مليار نسمة من بني البشر. إن لم تعالج قضية هؤلاء الناس، فسوف يزيد ابتعادهم عن الاقتصاد العالمي شيئاً فشيئاً في العقدين القادمين مكوّنين عالماً من التعاسة، والسخط، والاستياء.

obeikandl.com

إن المشكلات التي تعانيها هذه البلدان تختلف كلياً عن تلك التي خبرناها في العقود الأربعة الماضية، وأطلقنا عليها اسم «البلدان النامية»؛ أي كل البلاد عملياً عدا الدول الأكثر تطوراً التي تمثلّ ما مجموعه سدّس سكان العالم فقط. في كل هذه العقود الأربعة الماضية كنا نعرف الدولة النامية، بحيث يمثّل سكانها خمسة مليارات من المليارات الستة، وهو مجموع أعداد سكان العالم. لكن ليست الدول النامية جميعها متماثلةً. فما تجده في الدول التي أخفقت فيها التنمية في مواجهة المشكلات المستعصية، وعسيرة الحل لا تجده في الدول التي تحقق نجاحات. لقد أنجزنا في الواقع الجزء السهل من التنمية العالمية؛ أما إنجاز العمل كاملاً على هذا الصعيد، فقد أضحى اليوم أكثر صعوبةً. لكن يتعين علينا إنجازه لأن عالم التعاسة الذي يعيش فيه مليار نسمة سوف تزداد استحالة تحمل أوضاعه من قبلِ العالم الذي يعيش حياة رخاء مريحة.

المسألة لا تقتصر لسوء الحظ على إعطاء هذه الدول أموالنا. لو كان الأمر كذلك، لكان سهلاً نسبياً؛ إذ لا يوجد كثير منها. مع وجود بعض الاستثناءات المهمة، فإن المساعدات لا تصلح كثيراً في بيئات من هذا القبيل، على الأقل، إن قدمت هذه المساعدات على النحو الذي قدمت عليه في الماضي. إن التغيير الجوهري العميق في المجتمعات يجب أن يأتي غالباً من داخلها؛ فنحن لا نستطيع أن نفرضه عليها. في كل هذه المجتمعات يوجد صراعات بين أناس شجعان يرغبون في التغيير وبين آخرين معارضين له لأنه يهدد مصالحهم. ما زلنا حتى الآن نقف موقف المتفرِّج من هذا الصراع في معظم الحالات. نستطيع أن نفعل الكثير كي نشد على أيدي الإصلاحيين.

لكن كي نفعل ذلك نحن بحاجة إلى أدوات؛ على سبيل المثال: التدخلات العسكرية، ووضع معايير دولية، وسياسة تجارية. وهذه الوسائل ما زالت حتى يومنا هذا تستخدم خدمةً لأغراض أُخرى. إن المؤسسات التي تتحكم بهذه الوسائل، والأدوات ليس لديها معرفة بالمشكلات التي يعانيها المليار نسمة الذين يعيشون تحت خط الفقر، ثم إنها غير مهتمة بها. يجب على من يديرون هذه المؤسسات أن يتعلَّموا كيف ينسّقون هذه السلسلة الواسعة من السياسات، ويتعين على الحكومات أن تفعل الشيء ذاته.

إن هذه الأفكار تفتح آفاقاً عبر الانقسام السياسي. سوف يجد اليسار أن هذه المقاربات التي كان قد أسقطها من حسابه مثل التدخلات العسكرية، والتجارة، وتشجيع النمو هي وسائل حاسمة تهدف إلى تحقيق غايات لطالما آمن بها. أما اليمين فسوف يجد خلافاً للتحدي المتمثل بخفض الفقر العالمي، أن مشكلة المليار نسمة الذين يعيشون تحت خط الفقر لن تسوى آلياً بواسطة النمو العالمي، وأن إهمالها حالياً سوف يحولها إلى كابوس أمني يعانيه العالم، وأطفالنا. نستطيع أن نحطم هذه المشكلة؛ في الحقيقة، يجب علينا أن نحطمها. لكن كي نفعل ذلك، يجب علينا أن نتوحّد على الهدف.

لكي نبني وحدة هدف يجب أن يتغير التفكير، ليس داخل مؤسسات التنمية فقط، لكن بين جماهير الناخبين الذين يصوغون عبر آرائهم، ورؤاهم ما هو ممكن. في ظل غياب جماهير ناخبة واسعة الاطلاع، وعليمة، سوف يستمر السياسيون باستخدام قضية المليار نسمة الذين يعيشون تحت خط الفقر في مناسبات التقاط الصور فحسب، وليس من

أجل الترويج لإجراء تحول حقيقي. إن هذا الكتاب هو محاولة لتغيير نمط التفكير؛ لقد كُتِبَ لِيُقْرَأَ، ولذلك جعلته خلواً من الهوامش، والحواشي، وباقي أدوات الدراسة الاحترافية الاعتيادية المقيتة. لقد حاولت أن أكتب شيئاً تستمتعون بقراءته. لكن يجب أن لا يحملكم هذا على استنتاج أن ما يجب عليَّ قوله عبر هذا الكتاب هو تافه ولا نفع فيه. إن هذا الكتاب يستند إلى كم هائل من المقالات التقنية التي نشرت في مجلات احترافية أعرضتُ عن ذكر أسماء كتَّابها إلا أنني أدرجت بعضها في نهاية الكتاب.

إن البحث غالباً ما يكون شبيهاً بالتحقيق. تبدأ بإلقاء سؤال تبدو الإجابة عنه مستحيلةً: كم من المساعدات تتسرب إلى الإنفاق العسكري، أو كم من ثروات إفريقية هاجرت من القارة! ما هو النهج الذي تسلكه بشأن الأموال؟ اقرع على أبواب مصارف سويسرة واطلب إليهم أن يفصحوا عن الحسابات الإفريقية، والأموال الإفريقية المودعة لديهم! يوجد أسلوب آخر للحصول على الإجابات، إنه أسلوب إحصائي. ثمة فروق صارخة بين الإحصاءات، وبين الصور الفجة التي غالباً ما تزودنا بما نعتقد أننا نعرفه عن العالم. على صعيد الثروة، على سبيل المثال، كانت صورة تشي جيفارا موجودة في كل مكان، وملصقة على جدران غرف أبناء جيلي من الطلاب. إن الملصق يصنع لنا تفكيرنا. إن أفكارنا عن مشكلات أشد البلدان فقراً في العالم مشبعةٌ بصور من هذا القبيل: ليست بصور الثوار النبلاء فحسب؛ بل بصور الأطفال الذين يتضوّرون جوعاً أيضاً، وصور المؤسسات التجارية التي لا تعرف الرحمة، وصور السياسيين الذين لا يعرفون الاستقامة، ولا الشرف. إنك حبيس تلك

الصور. ولما كنت أسيرها، فإن سياسيّينا ليسوا أفضل حالاً منك، لأنهم يفعلون ما تريده. سوف أصحبك إلى ما وراء الصور. وسوف أهشمها أحياناً. وإن وسيلتي لتهشيمها هي الدليل الإحصائي.

اعتمدت في تحليلي الإحصائي على مجموعة قليلة من الشباب الذين شاركوني في الإعداد لهذا الكتاب. سوف تلتقي كثيراً منهم عبر الصفحات القادمة. آنكي هوفلر كانت واحدة من هؤلاء، كما كانت في القلب من كثير من هذا العمل. عملنا معاً على مدى عقد من الزمن عملاً مضاعفاً أديت فيه أنا دور الأستاذ المزعج إلى حد لا يطاق، في حين كانت آنكي تضبط انفعالاتها إلى حد بعيد. إن شئت أن تحصل على صورة مبالغ فيها إلى حد ما عن كيفية عملنا، بإمكانك أن تتخيل صورة أكثر سوءاً من صورة مورس ولويس في المسلسل البوليسي البريطاني الشهير. كما هي الحال معهما، فإن بحثنا يقحم عادةً بدايات زائفة كثيرة. على أي حال، بالرغم من أنني أشبه مورس في أن انطلاقتي كانت من أكسفورد، إلا أنني أختلف عنه في أنني أعمل مع فريق عمل دولي مرموق. لقد أفلح ظنكم فآنكي ألمانية. لكن يوجد آخرون أيضاً: السويدي مانز، والفرنسية ليزا، وستيف أمريكي الجنسية من أصول إيرلندية، وكاثي أمريكي الجنسية من أصول إفريقية، وفيكتور من سيراليون، والأسترالي فيل. إن من ذَكَرتُ أسماءهم هم مجموعة صغيرة فقط من فريق العمل، والقائمة تطول، لكنكم كَوّنتم فكرة.

ما يميزهم جميعاً هو الصبر، والكدّ، والمثابرة على بذل الجهد، وامتلاكهم عقولاً قادرة على ترويض المهارات الصعبة. لولا وجودهم معي لما أبصر هذا الكتاب النور. إن هذا الكتاب هو الصورة الكبيرة التي تنبثق

obeikandi.com

عندما تقوم أنت بالوصل بين النقاط. إلا أن النقاط هي قصة بذاتها. بالرغم من أن هذا ليس كتاباً عن بحث، فأنا آمل أن تتذوَّق وأنت تقرؤه بعضاً من نكهة الأسلوب الذي يتم عَبْرَهَ إجراء بحث حديث، وأن تستشعر الرعشة التي تسري في الجسد بسبب تحطيم القضايا العتيدة.

obeikandl.com